الشريعة الإسلامية

(إن شريعة محمد ستسود العالم، لانسجامها مع العقل والحكمة).
تولستوي الروائي العالمي الشهير

بعث الله تعالى رسله إلى الناس، ليدعوهم إلى اتباع شرائعه وأحكامه، التي تحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة، وآخر هذه الشرائع هي الشريعة الإسلامية.

مفهوم الشريعة الإسلامية

تطلق الشريعة في اللغة على معنيين:

الأول: مورد الماء الذي يرده الناس للشرب. والثاني: كل شيء يفتح في استقامة وامتداد يكون فيه، ومن هنا سمي الشراع شراعاً[1].

وهكذا شريعة الإسلام، فهي الطريق المستقيم الذي يرده العباد للهداية[2].

والشريعة الإسلامية في الاصطلاح تطلق على معنيين: عام وخاص:

فالمعنى العام، يشمل جميع جوانب الإسلام النظرية والعملية، فيشمل حقائق العقيدة، كما يشمل الأحكام العملية في العبادات والمعاملات وغيرها مما اصطُلِح على تسميته بالفقه.

أما المعنى الخاص فيختص بأحكام الإسلام العملية ولا يشمل أحكامه النظرية، أي أنه يختص بالفقه دون العقيدة.

ولذلك نقول: (الإسلام عقيدة وشريعة)، ونعني بالشريعة في هذه العبارة: الأحكام الفقهية العملية في الإسلام، دون حقائق العقيدة[3].

---

(١) **ابن فارس:** أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ٢٦٢/٣، **ابن منظور:** علي بن مكرم، **لسان العرب**، مرجع سابق، ٤٢٢/٣ - ٤٢٣.

(٢) **التميمي:** عز الدين الخطيب، وآخرون، **نظرات في الثقافة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٩٩.

(٣) جرار: بسام: **دراسات في الفكر الإسلامي**، مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية، البيرة، فلسطين، ط٢، ١٤٢٧هـ، ص ١٥٧.

خصائص الشريعة الإسلامية

تتميز الشريعة الإسلامية بجملة خصائص، من أهمها:

١) الربانية

الشريعة الإسلامية منزلة من الله تعالى، بخلاف النظم والشرائع الوضعية، فإنها بشرية وليدة فكر الإنسان ونتاج عقله، وينتج عن هذه الخصيصة:

أولاً: أن الشريعة الإسلامية كاملة تخلو من النقص، ولا تحتاج إلى التعديل والاستدراك والإضافة بين فترة وأخرى، لأن منزلها هو الله تعالى المتصف بالكمال والحكمة والعلم، فلا يفاجئه شيء في المستقبل لم يكن بالحسبان.

أما النظم والشرائع الأخرى، فإنها لا كمال فيها ولا استقرار لها، تراها دائماً متغيرة، يجري عليها التعديل، وتكتشف فيها الأخطاء والفجوات، لأن من وضعها بشرٌ محدودُ التفكير قاصرُ المعرفة.

ثانياً: أن الشريعة الإسلامية تُوجِدُ عند أتباعها دافعاً ذاتياً ورغبة قوية للالتزام بها، فالمسلم يلتزم بشريعته بقوة ورغبة، وفي كل وقت وظرف، في السر والعلانية، لأن منزل هذه الشريعة هو الله تعالى، الذي لا تخفى عليه خافية [١].

وذلك بخلاف الشرائع والنظم الأخرى، فإنها تُطبَّقُ بقوة القانون، وليس بدافع الرقابة الذاتية والرغبة الحقيقية، ويضعف الالتزام بها حين تغفل أعين الدولة.

أناقش: قد يقول بعض الناس: إن الربانية ليست ميزة للشريعة الإسلامية، حيث يشاركها في ذلك اليهودية والمسيحية مثلاً!

٢) العالمية في المكان والزمان

الشريعة الإسلامية شريعة عالمية، ليست محدودة بمكان ولا مؤقتة بزمان، وليست موجهة إلى أناس معينين دون غيرهم، ولا تُميز جنساً عن جنس ولا عرقاً عن عرق، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف: ١٥٨)[٢].

وأما النظم والشرائع الأخرى، فإنها محدودة بمكان دون غيره، وقد تصلح لزمن دون آخر، ويقوم بعضها على التمييز بين الناس على أسس عرقية ودينية وغيرها.

---

(١) **زيدان:** د. عبد الكريم، **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٣٥ - ٣٩.

(٢) **زيدان:** د. عبد الكريم، **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٣٩ - ٤٠.

هذا، وقد جاءت الشريعة الإسلامية، على نحو يحقق عالميتها وبقاءها وامتدادها في المكان والزمان، حيث جاءت أحكامها على نوعين:

النوع الأول: أحكام تفصيلية: تتعلق بحقائق ثابتة، لا يتصور أن يستغني الإنسان عنها في أي زمان أو مكان، ولا يتصور مجيء عصر تتغير فيه، مثل أحكام العقيدة والعبادات والأخلاق والأحوال الشخصية، فهذه الأحكام لا تتغير تفاصيلها بتغير الزمان والظروف، ولا يزاد عليها ولا ينقص منها، فالكذب مثلاً لا يمكن أن يصبح مستحسناً مع تقدم الزمن وتطور الإنسان، وصلاة الظهر أربع ركعات، لا يتغير عددها بمرور الزمن وتقدم الإنسان، ومقادير الميراث ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

النوع الثاني: مبادئ عامة: وهي قواعد تزوّدُ الإنسانَ بتوجيهات عامة وكلية، وذلك في المجالات التي يتطور فيها الإنسان من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى آخر، مثل أحكام الشريعة في مجالات المعاملات والاقتصاد والسياسة، حيث جاءت الشريعة ببيان مبادئها ومقاصدها العامة، التي لا يمكن أن تضيق بحاجات الناس، ولا أن تتخلف عن أي مستوى عالٍ يبلغه الإنسان، تاركة للمجتمعات والناس أن يختاروا ويُفصّلوا ما يرونه من وسائل ونُظُمٍ، بما يواكب التطورات والمستجدات ومصالح الناس، ويحقق مبادئ الشريعة ويوافق مقاصدها.

ومن الأمثلة على هذه المبادئ: مبدأ العدل في الحكم بين الناس، فمثلاً إذا رُئي أن تحقيق العدالة يستلزم إقامة محاكم، وأن تكون على ثلاث درجات، وأن تتكون من أكثر من قاض، وأن تنظم المرافعات فيها وفق أصول وقواعد مرعية، ونحو ذلك، فإن الشريعة لا تعارض ذلك، ما دام يُحقق مبدأ العدل[1].

أعلل: لا يعارض الإسلام إجراء العقود التجارية بوسائل الاتصال الحديثة، مثل شبكة الإنترنت، ضمن ضوابط محددة، كما لا يعارض صوراً حديثة للشركات، مثل شركات المساهمة، لماذا؟!

٣) الشمول والتوازن

نظمت الشريعة الإسلامية جميع جوانب الحياة، فما من شأن من شؤون الناس في الحياة الخاصة أو العامة، صغير أو كبير، إلا وعالجته بتعاليم سامية وتوجيهات إلهية وأحكام هادية، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(النحل: ٨٩).

---

(١) **زيدان:** د. عبد الكريم، **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٤٣ - ٤٩.

وقد جاء هذا التنظيم على نحو يوازن بين الدنيا والآخرة، وبين المادة والروح، وبين مطالب الفرد ومطالب الجماعة، فلا يطغى جانب على آخر، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص: ٧٧).

أما النظم والشرائع الأخرى، فإنها تقتصر على جوانب في الحياة وتهمل جوانب أخرى، ولم تنظم حياة الإنسان وشؤونه بشمول وتوازن، فقد يركز بعضها على الدنيا دون الآخرة، بينما يغرق بعضها في شؤون الآخرة ويهمل مطالب الدنيا، أو قد يركز بعضها على الرهبنة على حساب الجسد، أو على المادة وشهوات الجسد دون الروح، وبعضها قد يقدم مصلحة الفرد على مصلحة المجتمع، أو الاعتبارات الجماعية على المطالب الفردية.

نشاط: أوَضِّحُ في كل من الشرائع والمذاهب الآتية، الجانب أو الجوانب التي تطرفت فيها، والجانب أو الجوانب التي أغفلتها: اليهودية، البوذية، المسيحية، الرأسمالية، الاشتراكية.

٤) تحقيق مصالح الناس في العاجل والآجل

تهدف أحكام الشريعة الإسلامية إلى إقامة العدل بين الناس، ومحاربة الظلم، وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله تعالى، وعمارة الأرض، وحماية الضعفاء، وسد حاجات المحتاجين، وإقامة المجتمع الإنساني على أسس العدالة والتعاون والتكافل والمثل العليا في الأخلاق والمعاملات، وكل ما فيه منفعة ومصلحة فإنه من الشريعة، وكل ما فيه ضرر ومفسدة فإنه ليس من الشريعة.

يقول الشاطبي: (إن وضع الشرائع، إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل)[١]، ويقول ابن القيم: (فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَمِ ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلها، ومصالحُ كلها، وحكمةٌ كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست

(١) **الشاطبي:** إبراهيم بن موسى، **الموافقات في أصول الشريعة**، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرّج أحاديثه: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، السعودية، ط١،١٩٩٧م، ٩/٢.

من الشريعة في شيء، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه)[1].

أتنبه: كل المذاهب والقوانين الوضعية، تزعم أنها إنما وضعت لتحقيق ما فيه مصلحة الناس، ولكن ما يميز الشريعة الإسلامية، أنها الأقدر على تحديد وتحقيق مصالح الإنسان الحقيقية، وعلى تحديد وإبعاد المفاسد والمضار الحقيقية عنه، لأن من أنزل هذه الشريعة هو الله تعالى، الذي خلق الإنسان، وهو وحده يعلم ما يريحه ويحقق سعادته ومصالحه، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك: ١٤).

وقد استفاضت نصوص الشريعة العامة والخاصة، التي تؤكد أن المقصود من إنزال الشريعة تحقيق مصالح الناس ودفع المفاسد عنهم.

فمن **الأدلة العامة:** قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء: ١٠٧)، وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

والأدلة الخاصة، هي نصوص عللت تفاصيل الأحكام الشرعية، بتحقيق مصالح الناس ودفع المفاسد عنهم، ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(العنكبوت: ٤٥)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١).

---

(١) **ابن قيم الجوزية:** محمد بن أبي بكر، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ضبط وتعليق وتخريج: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ٣/٦ - ٧.

قواعد التشريع الإسلامي

لقد صاغ العلماء أحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها في عبارات موجزة دقيقة، على شكل قواعد، تساعد في جمع شتات الفقه، وتسهل حفظه وفهمه، من خلال ما بات يعرف بقواعد التشريع الإسلامي، أو القواعد الفقهية.

وعدد القواعد الفقهية يبلغ المئات، بيد أنها ليست على نفس الشهرة والاتساع والأهمية.

أتعلم: يُعَرِّفُ العلماء القاعدة بشكلٍ عامٍ على أنها: "قضية كلية منطبقة على جميع أجزائها"[1].

وأهمها القواعد الفقهية الأساسية الخمسة، وهي:

١- الأمور بمقاصدها.

٢- الضرر يُزال.

٣- اليقين لا يزول بالشك.

٤- العادة مُحكَّمة.

٥- المشقة تجلب التيسير.

فقاعدة الأمور بمقاصدها قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة، دلت عليها نصوص كثيرة، منها قوله ﷺ: **(إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)**[2].

ومعناها: أن أعمال الشخص وتصرفاته القولية والفعلية، تختلف نتائجها وأحكامها الشرعية باختلاف قصد الشخص منها.

ومن أمثلتها: من يتزوج المطلقة ثلاثاً بقصد أن يطلقها لتحل لزوجها الأول، فإن زواجه هذا محرَّم وغير مشروع.

وقاعدة الضرر يزال قاعدة أخرى عظيمة من قواعد الشريعة، دل عليها أدلة كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ (البقرة:٢٣٣)، وقوله ﷺ: **(لا ضَرَرَ وَلا ضِرَار)**[3].

---

(١) **الجرجاني:** علي بن محمد، **التعريفات**، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م، ص١٢١.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، حديث رقم:١، ج١، ص٣.

(٣) رواه **ابن ماجه**، محمد بن يزيد، **سنن ابن ماجه**، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار الفكر، بيروت، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، حديث رقم: ٢٣٤، ج٢، ص٧٨٤، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد اختصاراً هكذا: رواه ابن ماجه، ورواه **أحمد**، من مسند بنى هاشم،

ومعناها: أن كل عمل يُسبب الضرر للنفس أو للآخرين، فإنه يكون غير مشروع، ويجب رفعه وإزالته.

ومن أمثلتها: أن الإسلام يُحرِّمُ إقامة مصنع كيماويات مثلاً في حي سكني، لما يَلحق بالسكان من ضرر، ولما يؤدي إليه من تلويث للبيئة وإتلاف لمكوناتها.

ومن القواعد المتفرعة عن قاعدة (الضرر يزال): قاعدة: **(سد الذرائع)**، وقد دلت عليها نصوص كثيرة في الشريعة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ﴾(الأنعام: ١٠٨).

ومعناها: أن العمل المشروع في الأصل، يصبح غير مشروع، إذا وجدت ظروف يؤدي معها إلى مفاسد ومضار، فمع أن تسفيه الأصنام، هو أمر مطلوب في الأصل، لأنه إحقاق للحق وإبطال للباطل، إلا أنه يصبح منهياً عنه، إذا خشينا أن يرد المشركون على ذلك، بسب الله سبحانه وتعالى.

ومن الأمثلة على قاعدة سد الذرائع:

- تعليل النبي ﷺ امتناعه عن قتل زعيم المنافقين بقوله: (**دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**)[1]، فمع أن التخلص من بعض المفسدين في المجتمع هو أمر مطلوب في الأصل، إلا أنه يصبح أمراً غير مرغوب، إذا خشينا أن يترتب عليه مفاسد أكبر.

- قيام عمر بن الخطاب ﷺ بقطع الشجرة التي تمت عندها بيعة الرضوان، لأنه رأى الناس يكثرون من الصلاة عندها، وذلك منه ﷺ سداً لذريعة الشرك[2].

والقاعدة الثالثة من القواعد الفقهية الأساسية الخمسة:

قاعدة اليقين لا يزول بالشك، وأساسها أن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

ومعناها: أن ما ثبت بيقين، لا يزول إلا بيقين مثله، ولا يزول بمجرد الشك.

ومن أمثلتها: أن من كان قد توضأ، ثم شك إن كان وضوؤه قد انتقض أم لا، فهو على وضوء، لأن الشك لا يزيل اليقين.

مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حديث رقم: ٢٨٦٧، ج١، ص٣١٣، ومن مسند عبادة بن الصامت، حديث رقم: ٢٢٨٣٠، ج٥، ص٣٢٦، قال شعيب الأرنؤوط: **حديث حسن**.

(١) رواه **البخاري**، كتاب التفسير، باب سورة المنافقون، حديث رقم: ٤٦٢٢، ج٤، ص١٨٦١، ورواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، حديث رقم : ٢٥٨٤، ج٤، ص١٩٩٨.

(٢) أنظر هذا وأمثلة أخرى مستفيضة على هذه القاعدة في: **البرهاني:** محمد هشام، **سد الذرائع في الشريعة الإسلامية**، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م، ص٤٩٥ وما بعدها.

والأصل بقاء ما كان على ما كان حتى يثبت بشكل أكيد ما يُغَيِّرُه. ومن هنا جاء اعتبار المتّهَم بريئاً حتى يثبت بشكل أكيد إدانته، لأن الأصل في الإنسان البراءة.

وقاعدة العادة مُحَكَّمة، من قواعد الشريعة الأساسية حتى قال العلماء: لا يُنكرُ تغيرُ الأحكام بتغير الأزمان[1].

ومعناها أن أعراف الناس وعاداتهم، لها أثر في الأحكام الشرعية المبنية على العرف.

ومن الأمثلة على ذلك: أنه إذا باع شخص لآخر سيارة، ولم يحددا ما يدخل في البيع من التوابع، فإن الحكم الشرعي ينبني على ما يقرره العرف في البلد بهذا الخصوص، فتدخل في البيع التوابع التي جرى العرف أن تدخل، مثل إطار السيارة الاحتياطي مثلاً.

ويمكن القول: إن كل ما أوجبه الشارع ولم يحدد مقداره، إنما يُلجَأ في تحديد مقداره، إلى العرف السائد في البلد.

ويجب التنبيه هنا، إلى أنه ليست كل أحكام الشريعة تتأثر بالعرف وتتغير بتغيره، وإنما يقتصر ذلك على المسائل التي تركتها الشريعة لأعراف الناس، ولم يَقصد الشارع ثباتها.

فهنالك أحكام شرعية لم تُبْنَ على العرف، بل قصد الشارع ثباتها على مر الزمان، فتبقى كما هي حتى لو جرى العرف بخلافها أحياناً كانتشار التعامل بالربا باسم الفائدة البنكية، فإن ذلك لا يجعل الربا حلالاً. وإذا جرى العرف في بلد بكشف النساء لرؤوسهن، فإن هذا العرف فاسد، ولا يجعل السفور وكشف العورات أمراً مباحاً[2].

وقاعدة المشقة تجلب التيسير، مستمدة من جملة آيات وأحاديث، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، (البقرة١٨٥)، وكقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، وهي نصوص صريحة في نفي المشقة والعنت عن هذا الدين.

ولأجل ذلك شرع الله تعالى الرُّخص لعباده، ومن أمثلة ذلك: رخصة قصر الصلاة وجمعها في السفر، ورخصة الفطر في السفر لأجل المشقة التي فيه.

وقد صاغ العلماء من هذه القاعدة الكلية قواعد فرعية متعددة، منها:

قاعدة: (الضرورات تبيح المحظورات)، وتكملها قاعدة (الضرورة تُقدر بقدرها). ومنها قاعدة: (إذا ضاقَ الأمرُ اتَّسَعَ)، أي وسعت الشريعة فيه برفع الحرج والتخفيف والتيسير.

---

(١) **الزرقا:** أحمد محمد، **شرح القواعد الفقهية**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، ص٢٢٧.

(٢) **الحريري:** د.إبراهيم محمد، **المدخل إلى القواعد الفقهية**، دار عمار، عمان، ط١، ١٩٩٨م، ص١٠٨-١١٦.

أنشطة حوارية مقترحة:

يقوم الطلبة بمناقشة الموضوع التالي:

١. ما مفهوم الحرية الشخصية؟ وأين حدودها فيما يتعلق بالتزام الأحكام الشرعية؟!

<u>مراجع مساعدة:</u>

- أخلاقنا الاجتماعية/ مصطفى السباعي.
- الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية لماذا وكيف؟/ محمد سعيد رمضان البوطي
- أفاق الحرية/ على العمري.

الوحدة الرابعة

نظام الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

(النساء:٦٥)

صدق الله العظيم

محتويات الوحدة وأهدافها

وتتمثل بالآتي:

١. **نظام العبادات في الإسلام: مفهوم العبادة وشروطها وخصائصها.**

الهدف: أن يناقش الطلبة نظام العبادة، لتحكم شعائرهم و سلوكهم.

٢. **نظام الأخلاق في الإسلام: مفهومه وأسسه وخصائصه.**

الهدف: أن يناقش الطلبة مفردات هذا النظام ليقتدوا به.

٣. **النظام الاجتماعي في الإسلام: مفهومه وأسسه ومنهجه.**

الهدف: أن يتدرب الطلبة على أساليب الحياة الاجتماعية الإسلامية.

٤. **النظام الاقتصادي في الإسلام: مفهومه وأسسه وخصائصه.**

الهدف: تدريب الطلبة على تنظيم نشاطهم الاقتصادي لاحقاً في ضوء مبادئ الإسلام وتعاليمه.

٥. **نظام العقوبات في الإسلام: مفهومه، وخصائصه.**

الهدف: أن يتدرب الطلبة على السلوك الحسن في ضوء هذا النظام.

٦. **النظام السياسي في الإسلام: مفهومه ومبادئه وأحكامه.**

الهدف: أن يطبق المتعلمون هذا النظام في حياتهم.

نظام العبادات في الإسلام

(لو عَلِم الملوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف).
إبراهيم بن أدهم التابعي العابد الزاهد

إن عبادة الله عز وجل هي وظيفة الإنسان الأساسية التي خلق لها على هذه الأرض، قال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وبها أرسل جميع الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾(الأنبياء: ٢٥).

مفهوم العبادة في الإسلام

تدل **العبادة في اللغة**، على: الخضوع والتذلل والانقياد والاستسلام[١].

ويمكن تعريف **العبادة اصطلاحاً** بأنها: التوجه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، حباً فيه ورجاء في ثوابه، واستشعاراً لعظمته وخوفاً من عقابه.

فمفهوم العبادة يقوم على ركنين:

١) الحب والخوف:

فيجب أن يكون الله تعالى أحب إلى العبد من كل شيء، وفي الوقت نفسه أن يكون أعظم عنده وأخوف له من كل شيء، وبهذا يلاحظ أن المعنى الشرعي للعبادة لا يكتفي بعنصر الخضوع والذل، وإنما يشمل إلى جانب ذلك عنصر المحبة والرجاء[٢].

قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾(الإسراء: ٥٧).

---

(١) **ابن منظور**: علي بن مكرم، **لسان العرب**، مرجع سابق، ٢٣٩/٤ - ٢٤٢، **الفيروزآبادي**: مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مرجع سابق، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٢) **ابن تيمية**: أحمد بن عبد الحليم، **العبودية**، تعليق وتخريج: محمد بن سعيد بن رسلان، دار الإيمان، الاسكندرية، ط ٢٠٠٣، ص ١٥ - ١٧.

ومن يتفكر في نعم الله تعالى عليه، يصل إلى درجة الحب له. ومن يتفكر في خلقه تعالى وما فيه من عظمة وإحكام وإبداع، يزداد استشعاره لعظمة الله تعالى وخشيته لجلاله، ولذلك كان العلماء أكثر الناس خشية لله واستشعاراً لعظمته.

٢) العمل الصالح:

يتكامل العمل الصالح مع حب الله تعالى وخشيته، إذ العمل الصالح هو الذي ينمي في النفس ذلك الحب وتلك الخشية، تماماً كما أن مشاعر الرحمة والشفقة تنمو بالعطف على الفقراء، وتضعف بالقسوة والظلم[١].

ولا معنى لادعاء حب الله تعالى والخوف منه، ما لم يظهر أثر ذلك في السلوك.

ومن يزعم حب الله تعالى وخشيته، ثم هو يقصر في عبادته أو يسرف في معصيته، فليس صادقاً في زعمه، وإلا لفاض ذلك الشعور على ظاهره، فلهج لسانه بذكر الله تعالى، واطمأنت جوارحه في عبادته.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾(آل عمران: ٣١)،

ويقول ابن تيمية: (ومن ظن أن الذنوب لا تضره، لكون الله يحبه مع إصراره عليها، كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره، مع مداومته عليه وعدم تداويه منه)[٢].

شروط قبول العبادة في الإسلام

يشترط لقبول العبادة عند الله تعالى شرطان، هما: الإخلاص، وموافقة الشرع، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف: ١١٠)[٣].

فالإخلاص هو: التوجه إلى الله تعالى وحده بالعبادة، دون شرك أو رياء، ويلاحظ أن أكثر العبادات غير المفروضة، يُستحب أداؤها بطريقة سرية، مثل قيام الليل، وصلاة النافلة، وصدقة التطوع، لترسيخ الإخلاص في النفس[٤].

---

(١) **الصدر:** محمد باقر، مقال بعنوان: **(نظرة عامة في العبادات)** منشور بتاريخ ٢٠٠٧/١١/١٨ على موقع: (المركز الإعلامي لمكتب السيد الحسني)، alhasany.org.

(٢) **ابن تيمية:** أحمد بن عبد الحليم، **العبودية**، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٣) **ابن تيمية:** أحمد بن عبد الحليم، **العبودية**، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٤) **الصدر:** محمد باقر، مقال بعنوان: **(نظرة عامة في العبادات)**، مرجع سابق.

وموافقة الشرع تعني: أداء العبادة بالطريقة نفسها التي بينها الشرع، دون زيادة أو نقصان أو تغيير، ومن يخالف ذلك، ولو بنية التقرب إلى الله تعالى، لا يكون عمله مقبولاً، مثل من يصلي الظهر خمس ركعات مثلاً، زيادة في التقرب إلى الله تعالى. قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾(الشورى: ٢١)، وقال النبي ﷺ: (**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**)[١].

أفضل العبادات في الإسلام

الذي عليه المحققون من العلماء: أن لكل حال عبادته الأفضل، فأفضل العبادات حين يقتحم عدونا علينا بلادنا هو الجهاد، ولو آل هذا إلى ترك صلاة الليل وصيام النهار، وأفضل العبادات حين حضور الضيف إكرامه، ولو أدى إلى ترك النوافل، وأفضل العبادات وقت السحر الاستغفار، وأفضل العبادات للغني إنفاق المال في سبيل الله تعالى، وأفضل عبادة للعالم تعليم الناس وإرشادهم، وأفضل العبادات في العشر الأواخر من رمضان، لزوم المسجد والخلوة والاعتكاف[٢].

خصائص العبادة في الإسلام

تتميز العبادة في الإسلام بخصائص، من أهمها:

١) الصلة المباشرة بين العبد وربه

تقوم العبادة في الإسلام على علاقة مباشرة بين العبد وربه، دون وسطاء من البشر، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾(البقرة: ١٨٦).

فلا يعرف الإسلام طبقة من رجال الدين يتواسطون بين الله تعالى وعباده، لا تُقبل الصلاة ولا التوبة إلا عن طريقهم، كما لا يشترط الإسلام طقوساً ومراسم كهنوتية، لا تقبل العبادة إلا بها[٣].

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود حديث رقم: ٢٥٥٠، ج٢، ص٩٥٩، ورواه **مسلم**، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم: ١٧١٨، ج٣، ص١٣٤٣.

(٢) **ابن قيم الجوزية**: محمد بن أبي بكر، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م، ٧٣/١ - ٧٧.

(٣) **القرضاوي**: د.يوسف، **العبادة في الإسلام**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٥، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥م، ص ١٥٣.

٢) اليسر ورفع الحرج

تمتاز العبادة في الإسلام بالسهولة واليسر، فليس فيها ما يشق على الناس ويخرج عن طاقتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

ولذلك يرفض الإسلام أن يشدد الإنسان على نفسه، ويبالغ في العبادة إلى حد يرهق جسده وروحه، ويؤثر على أدائه لواجباته الأخرى في الحياة[١]، يقول النبي ﷺ: **(خُذُوا مِنْ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا)**[٢].

ويخفف الإسلام تكاليف العبادات المفروضة في ظروف المشقة والحرج، إما **تخفيفاً كلياً**، بإسقاط العبادة كلها، مثل إباحة الإفطار في رمضان للمريض وللمسافر، وعدم وجوب الحج على العاجز عنه بدنياً أو مالياً، أو **تخفيفاً جزئياً**، بإسقاط بعض العبادة أو بعض شروطها وهيئاتها، مثل: إباحة قصر الصلاة في السفر، وإباحة الجمع بين الصلوات لعذر، كما في المطر.

٣) الشمول

تتميز العبادة في الإسلام بالشمول لكل مجالات الحياة الإنسانية، ومن هنا قال العلماء: إن مفهوم العبادة في الإسلام، لا يقتصر على الشعائر الدينية المعروفة، كالصلاة والصيام والحج، وهي ما أطلقوا عليه: **العبادات المحضة (المخصوصة)**، وإنما يمتد ليشمل كل عمل أو قول نافع، يقوم به الإنسان ابتغاء رضوان الله تعالى، وهو ما أطلقوا عليه: **العبادات العامة**، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام: ١٦٢)، وبهذا المعنى عَرَّفَ ابن تيمية العبادة بأنها: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[٣].

فالعبادة بمفهومها العام تشمل: حسن المعاملة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان الى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان، وإصلاح ذات البين، والعلم، والسعي في طلب الرزق، بل حتى الغريزة وقضاء الشهوة في الحلال، والأكل

---

(١) **القرضاوي**: د.يوسف، **العبادة في الإسلام**، مرجع سابق، ص ١٩٣ - ٢٠٩.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه، حديث رقم: ٥٥٢٣، ج٥، ص٢٢٠١، ورواه **مسلم**، كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان واستحباب أن لا يخلي شهراً عن صوم، حديث رقم: ٧٨٢، ج٢، ص٨١١.

(٣) **ابن تيمية**: أحمد بن عبد الحليم، **العبودية**، مرجع سابق، ص ٨.

والنوم وممارسة الرياضة، كل ذلك عبادة، إذا صاحبه نية نيل رضوان الله تعالى[١]، ومن الأمثلة على العبادة بمفهومها العام: قول النبي ﷺ: **(مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ وَاللَّهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنْ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ)**[٢].

وبهذا المعنى الشامل للعبادة، يختلف الإسلام عن اتجاهين آخرين[٣]:

الاتجاه الأول: الفصل بين العبادة والحياة: حيث يدعو هذا الاتجاه إلى حصر العبادة في أماكن خاصة بها، حتى إذا خرج الإنسان منها الى سائر حقول الحياة وَدَّعَ العبادةَ وانصرف إلى شؤون دنياه.

ويرفض الإسلام ذلك، إذ الإسلام لا يريد العبادة من أجل العبادة، وإنما يريدها من أجل الحياة، فالعبادة في الإسلام لا تحصر المسلم بين جدران المسجد، وإنما تجعل المسجد منطلقاً إلى كل نشاطات الحياة، لصبغها بصبغة العبادة.

الاتجاه الثاني: حصر الحياة في إطار ضيق من العبادة: حيث يدعو هذا الاتجاه إلى حصر الحياة كلها في أماكن خاصة، في الكنيسة والمعبد والمسجد، كما يفعل المترهبنون، حيث يعتقدون أن الإنسان يعيش تناقضاً داخلياً بين روحه وجسده، ولا يتكامل في أحد الجانبين إلا على حساب الآخر، وكي يزكو روحياً يجب أن يحرم جسده من الطيبات، ويقلص وجوده على مسرح الحياة، ويمارس صراعاً مستمراً ضد رغباته وتطلعاته، حتى يتم له الانتصار عليها جميعاً عن طريق الكَفِّ المستمر والحرمان الطويل، والممارسات العبادية المحددة.

ويرفض الإسلام ذلك أيضاً، إذ العبادة في الإسلام ليست روحانية رهبانية محضة تهمل الجسد، وترى التقرب إلى الله تعالى بتعذيبه وإهمال تنظيفه وحرمانه من متعه[٤]، قال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ (القصص: ٧٧)، وقال ﷺ: **(أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)**[٥].

---

(١) **القرضاوي**: د. يوسف، **العبادة في الإسلام**، مرجع سابق، ص ٤٩ وما بعدها.

(٢) رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، حديث رقم: ١٩١٤، ج٤، ص٢٠٢١.

(٣) **الصدر**: محمد باقر، مقال بعنوان: **(نظرة عامة في العبادات)**، مرجع سابق.

(٤) **القرضاوي**: د.يوسف، **العبادة في الإسلام**، مرجع سابق، ص ١٨١ - ١٩٢.

(٥) رواه **البخاري**، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم: ٤٧٧٦.

4) الجمع بين الجانب الحسي والجانب المعنوي

إن الإنسان ليس مجرد إحساس وبدن، كما أنه ليس مجرد عقل وتفكير، وإنما هو مجموعهما، وحينما يراد من العبادة أن تؤدي دورها على نحو يتفاعل معه الإنسان تفاعلاً كاملاً، وينسجم مع تكوينه، ينبغي أن تشتمل على جانبين: جانب حسي تجسيدي، وجانب معنوي تجريدي، وهكذا هي العبادات في الاسلام، يعيش المسلم معها فكراً وحساً، منطقاً وعاطفةً، تجريداً ووجداناً.

فالمصلي في صلاته يمارس بنيته تعبداً فكرياً، وينزه ربه عن أي حد ومقايسة ومشابهة، وذلك حين يفتتح صلاته قائلاً: (الله أكبر)، وذلك يمثل الجانب المعنوي التجريدي، ولكنه في نفس الوقت يتخذ من الكعبة الشريفة شعاراً ربانياً، يتوجه إليه بأحاسيسه وحركاته، وذلك يمثل الجانب الحسي التجسيدي.

والبيت الحرام الذي يؤمه الحاج والمعتمر ويطوف به، والصفا والمروة اللذان يسعى بينهما، وجمرة العقبة التي يرميها بالحصيات، والمسجد الذي خصص مكاناً للاعتكاف يمارس فيه المعتكف عبادته.. كل هذه الأشياء معالم حسية تجسيدية رُبطت بها العبادة، في حين تمثل النيةُ والإخلاصُ والمشاعرُ الداخلية الجانبَ المعنوي في العبادة.

وبهذا يختلف الإسلام عن اتجاهين آخرين[1]:

أحدهما: يفرط في التركيز على الجانب العقلي التجريدي، فيتعامل مع الإنسان كفكر مجرد، ويشجب كل التجسيدات الحسية في مجال العبادة، على أساس أن الحق سبحانه لا يحده مكان ولا زمان، ولا يمثله نصب ولا تمثال، فيجب أن تكون عبادته قائمة على التفكر المحض والتأمل المجرد.

> **أفكر:** يقوم المعالج النفسي بمعالجة العقد الإنسانية النفسية، بأعمال وتجسيدات حسية، دون الاكتفاء بالمحادثة والإقناع العقلي، لماذا؟!

والثاني: يفرط في التركيز على الجانب الحسي التجسيدي، ويحول الشعار إلى تجسيد مادي محدود، يتوجه إليه بالعبادة، بحيث ينغمس العابد بشكل أو بآخر في الشرك والوثنية.

---

(١) **الصدر:** محمد باقر، مقال بعنوان: **(نظرة عامة في العبادات)**، مرجع سابق.

لقد ميَّزَ الإسلامُ بعمق بين مفهوم الصنم الذي حطمه ومفهوم القبلة الذي جاء به، وهو مفهوم لا يعني إلا أن نقطة مكانية معينة أسبغ عليها تشريف رباني، فربطت الصلاة بها، إشباعا للجانب الحسي من الإنسان العابد، وليست الوثنية في الحقيقة إلا محاولة منحرفة لاشباع هذا الجانب استطاعت الشريعة أن تصحح انحرافها، وتقدم الأسلوب السوي في التوفيق بين عبادة الله تعالى، بوصفها تعاملاً مع المطلق الذي لا حد له ولا تمثيل، وبين حاجة الإنسان المؤلف من حس وعقل وجسد وروح.

فالإسلام توسط بين الاتجاهين المذكورين، ورفض التجريد المحض، لأنه يخالف طبيعة الإنسان، ولا يُشعره بالاتصال الحقيقي بالله تعالى، كما رفض الوثنية بكل أشكالها، وحطم الأصنام، لأنها تقضي على روح العبادة وتعطلها.

آثار العبادة في الإسلام

ليست العبادة في الإسلام مجرد شعائر ظاهرية، لا هدف منها ولا أثر لها، وإنما تعود بآثار عظيمة على الفرد والمجتمع، منها[1]:

١) تحقيق الطمأنينة والسعادة والراحة

تلبي العبادة الحاجات الروحية الملحة عند الإنسان، ولذلك يجد الإنسان فيها طمأنينته وسعادته، ويشعر بلذة الاتصال بالله تعالى ومناجاته، وتشكل له محطة يتقوى بها على مواجهة مصاعب الحياة ومتاعبها وهمومها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾(الرعد: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥)، وكان النبي ﷺ يجد راحته وسعادته في الصلاة، حتى إذا حضر وقتها، أمر بلالاً ﷺ قائلاً: **(يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا)**[2].

---

(١) أنظر: **المبارك:** محمد، **نظام الإسلام: العقيدة والعبادة**، مرجع سابق، ص ١٦٣ وما بعدها، **القرضاوي:** د.يوسف، **العبادة في الإسلام**، مرجع سابق، ص٩٥ وما بعدها، ص ٢١٣ وما بعدها.

(٢) رواه **أبو داود**، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مع الكتاب: تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار الفكر، بيروت، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، حديث رقم: ٤٩٨٥، ج٤، ص٢٩٦، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد اختصاراً هكذا: رواه **أبو داود**، ورواه **أحمد**، المسند، حديث رقم: ٢٣١٣٧

٢) تهذيب النفس وتقويم السلوك

إن العبادة الحقة تهذب نفس العابد، وتجبلها على فضائل الأخلاق وتنقيها من الرذائل، وتجعل من صاحبها عنصر خير وبناء في مجتمعه، وتُبعده عن الفواحش والظلم والبغي، ولذلك قرن القرآن الكريم بين العبادة وتزكية النفس فقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى: ١٤ . ١٥)، كما ربط بين العبادة والسلوك القويم في المجتمع، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

ولكل شعيرة من شعائر العبادات في الإسلام، أثر في نفس المسلم وسلوكه:

فالصلاة تربي الإنسان على الخضوع لله تعالى وخشيته.

والزكاة تربي على الكرم والجود، وتنقي صاحبها من مظاهر الشح والبخل.

والصيام يُعَوِّدُ الإنسانَ على الانضباط والصبر والتحكم في شهواته.

والحج رحلة إلى مكان معين، يجتمع فيه الناس من كل حدب وصوب، بملابس معينة، بعيداً عن زخرف الدنيا، ليستشعر الإنسان رحلة الآخرة وجمعَ الناس ليوم عظيم.

٣) تحرير الإنسان

الإنسان مخيّر بين طريقين لا ثالث لهما: العبودية لله أو لغيره، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(الإنسان ٣)، فإذا اختار عبادة الله تعالى، تحرّر من الخضوع لغيره، إذ العبادة تربط صاحبها بخالق الخلق، الذي بيده الأمر كله، فيتحرر العابد من الخضوع للشهوات والأهواء، ويتحرر من الخضوع للطواغيت، ويتمرد على كل ظلم واستكبار.

وإذا لم يختر عبادة الله تعالى، فسيكون عبداً لشهواته وأهوائه وللشياطين والطواغيت، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾(الجاثية: ٢٣).

٤) الآثار الاجتماعية للعبادة

للعبادة في الإسلام آثار اجتماعية كبيرة، ومن مظاهر ذلك:

- **صلاة الجماعة**، تذيب كل الفوارق الاجتماعية التي تميز بين الناس، حين تجمعهم في صف واحد على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية.

- **والصيام**، يذكر بالفقراء والإحساس بما يعانونه من ألم الجوع، ويلفت انتباه المسلم إلى إخوانه، فيجود عليهم بما عنده، وتقوى الرحمة والمودة بين المسلمين.

- **والزكاة**، فيها تكافل اجتماعي مالي بين الغني والفقير.

- **والحج**، مؤتمر كبير يحضره أعداد كبيرة من المسلمين من شتى بقاع العالم، من كل بلد وجنس ولون، يجتمعون في مكان واحد وزمان واحد بلباس واحد ومناسك واحدة، ليجسدوا معاني المساواة، ويتبادلوا المصالح والمنافع الدينية والدنيوية، وتتحقق بينهم أعظم أواصر التكافل والتعاون والتناصح.

أقرأ وأستمتع

من معاني شعائر الحج:

أجواء الإحرام ومحظوراته في الحج، تربط المحرم بالآخرة، وتدربه على التحرر من كل زخارف الدنيا. **وفي التلبية:** نداء تنطلق به كل حناجر الحجاج؛ لتؤكد موقفهم الذي يريد أن يلتزم بالإسلام من جديد، في مسيرتهم إلى مركز الدعوة الإسلامية الأُولى في مكّة، يلتزمون في موقفهم هذا، بكل نداءات الإسلام، في عباداته، وفي أخلاقه، وفي جهاده، وفي سياسته، واقتصاده.. وفي مواجهة كل التحديات التي يواجهها الإنسان من الشيطان الداخلي في عمق نفسه، أو من الشيطان الخارجي في عمق واقعه وفيما يحيط بحياته. **وفي الطّواف** حول الكعبة، يلوذ بجناب ربّه ويلجأ إليه من ذنوبه، ومن هوى نفسه، ووسواس شيطانه. **وفي السعي بين الصفا والمروة:** تتمثل حركة الإنسان من بداية معينة إلى نهاية معينة في أشواط، ليكون سعيه نقطة انطلاق إلى كل الساحات في العالم، إلى طلب العلم، أو تحصيل القوة، أو مواجهة التحديات التي يفرضها المستكبرون، أو قضاء حوائج الناس؛ لأن الله تعالى طلب منّا السعي من أجل هذه الأمور، كما طلبه منّا في هذا المكان. **وفي وقفات الحج، في عرفة، وفي المزدلفة، وفي منى:** يعيش المرء لياليها في لحظات تأمّلٍ وتفكير، ليكتشف ما يمكن أن يكون قد وقع فيه من انحرافٍ في خط السير، كما أن في هذه الوقفات والجمع الهائل من الناس والتزاحم والتوحد في اللباس، استحضاراً للموقف العظيم يوم القيامة بين يدي الله تعالى، حيث يقوم الناس لرب العالمين. **وفي رمي الجمار:** فكرة الصراع مع الشيطان ومحاربته، حيث يستحضر كل الشياطين في واقعه؛ ليرى أمامه كل شياطين الكفر والظلم والاستكبار في مواقع القوة في العالم، فيعبر عن رفضه لها ولطاعتها، ويعبر عن محاربته لها بأعنف الطرق.. بالرجم[1].

---

(١) **فضل الله:** محمد حسين، مقال بعنوان: **(البعد العرفاني والتربوي والعبادي للحج)** منشور على موقع بينات: (موقع مكتب العلامة السيد محمد حسين فضل الله)، arabic.bayynat.org.lb.

النظام الأخلاقي في الإسلام

(وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخلَاقُ مَا بَقِيَت
فَإِن هُمُو ذَهَبَت أَخلَاقُهُم ذَهَبُوا).
أحمد شوقي

الإسلام دين الأخلاق، فلم يُعرف عن دين أو نظام أنه اهتم بالأخلاق، مثلما عُرف عن الإسلام، وما من ميزة تميز الإسلام بها كما تميز بالأخلاق.

وتميزت الأمة الإسلامية بالأخلاق، وليس أدل على ذلك من أن أكثر من دخل في الإسلام قديماً، خاصة في شرق جنوب آسيا، وهي بقعة يقطنها معظم المسلمين اليوم . إنما دخل فيه بسبب أخلاق التجار والجنود المسلمين الفاتحين.

مفهوم الأخلاق

الأخلاق هي: (**الصفات النفسية والسلوكية للإنسان القابلة للمدح أو للذم**).

فالصفات النفسية المحمودة، مثل: حب الخير للآخرين وإحسان الظن بالناس، والصفات السلوكية المحمودة، مثل: الصدق والبر والوفاء بالعهود، وقل عكس ذلك في الصفات النفسية والسلوكية المذمومة[1].

أفكر: ما العلاقة بين الصفات النفسية والسلوكيات الخارجية عند الإنسان؟

أهمية الأخلاق في الإسلام

الأخلاق ضرورة حتمية لقيام أي مجتمع وتماسكه وتقدمه، ولنتخيل مجتمعاً يسوده الكذب مثلاً، أو خيانة الأمانة، كيف يمكن أن تكون علاقات أفراده بعضهم ببعض؟ وهل يمكن تصور تعاملهم وتعايشهم أصلاً؟

ولذلك اهتم الإسلام بالأخلاق اهتماماً كبيراً، ومن مظاهر هذا الاهتمام:

---

(١) وقيد (**القابلة للمدح أو الذم**)، يفيد تمييز الأخلاق عن الصفات والدوافع الغريزية، مثل الأكل عند الجوع، والخوف عند وجود موجباته، فإن ذلك كله ليس مما يحمد أو يذم، بخلاف الكذب أو الصدق، أنظر: **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م ص ١٠

١) إقتران الدعوة إلى الأخلاق بالدعوة إلى التوحيد

رفع الله تعالى الأخلاق إلى منزلة تقارب منزلة التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾(الإسراء: ٢٣).

وجعل الدعوة إلى مكارم الأخلاق، جوهر الرسالات السماوية، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾(الحديد: ٢٥).

٢) جعل مكارم الأخلاق من أهم صفات الرسول ﷺ، ومن أهم غايات بعثته

كان النبي الكريم ﷺ متميزاً بأخلاقه الكريمة قبل البعثة، حتى عرف بين الناس بـ (الصادق الأمين)، وهذه خديجة - رضي الله عنها - تصف لنا أخلاق النبي ﷺ قبل الإسلام، فتخاطبه مواسية ومهدئة: **(كَلّا وَاللهِ، مَا يُخزِيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحمِلُ الكَلَّ، وَتُكسِبُ المَعدُومَ، وَتُقرِي الضَّيفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ)**[١].

وهكذا امتاز النبي ﷺ بأخلاقه، حتى إن الله تعالى لم يمدحه بكثرة الصلاة والصيام والصدقة وغير ذلك مما عرف به، وإنما مدحه بأخلاقه الكريمة، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(القلم:٤).

وهذا يدل على أن حسن خلقه ﷺ، كان له الدور الأكبر في منزلته العظيمة التي بلغها عند الله تعالى، ومن أهم أسباب اصطفائه نبياً، ولا عجب، فجوهر الإسلام الدعوة إلى مكارم الأخلاق، كما قال النبي ﷺ : **(إِنَّمَا بُعِثتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخلَاقِ)**[٢].

٣) جعل مكارم الأخلاق من أكثر الأعمال أجراً وقربة إلى الله تعالى

---

(١) جزء من حديث طويل في بدء نزول الوحي، رواه **البخاري**، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ حديث رقم: ٣، ج١، ص٤، ورواه **مسلم**، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: ١٦٠، ج١، ص١٣٩.

(٢) رواه **أحمد في مسنده**، بلفظ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)، حديث رقم: ٨٩٣٩، ج٢، ص٣٨١، ورواه **البيهقي**، أحمد بن الحسين، **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م، بلفظ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلقا بها كان من أهل المروءة التي هي شرط في قبول الشهادة على طريق الاختصار، حديث رقم: ٢٠٥١٧، ج١٠، ص١٩١، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد اختصاراً على النحو: رواه **البيهقي**، قال الهيثمي: رواه أحمد **ورجاله رجال الصحيح**، أنظر: **الهيثمي**: علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١٤٠٧ هـ، ١٥/٩.

كثرت نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية التي تبين عظيم ثواب الأخلاق، وتجعل المتصفين بها أقرب الناس منزلاً من النبي ﷺ يوم القيامة، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت: ٣٤ - ٣٥)، وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: **(لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا)**[1]، وفي الحديث الشريف أيضا: **(مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ)**[2]، وعن أبي هريرة ﷺ: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: **(أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)**[3].

العوامل المؤثرة في الأخلاق

هل يمكن لسريع الغضب أن يُصبح حليماً وللبخيل أن يغدو كريماً؟ وفي المقابل هل يمكن أن يصبح الحليمُ حادَّ المزاج؟ وأن يصبح الكريمُ بخيلاً؟ أم أن الله تعالى خلق الناس على سجايا مختلفة لا تتغير؟ وطَبَعَهم بطباع متفاوتة لا تتبدل؟

والجواب: أنّ هناك عاملين رئيسين يؤثّران في أخلاق الإنسان: عامل خَلْقي طبع اللهُ تعالى الإنسانَ عليه، وعامل اكتسابي يعود إلى البيئة التي ينشأ فيها المرء، وإلى ما يبذله كل إنسان من جهد في تغيير أخلاقه.

فالله تعالى خلق الناس متفاوتين في ميولهم واستعداداتهم وطباعهم، وهذا ملحوظ بوضوح، ومنذ الصغر، فبعض الأطفال مثلاً، تتضح عليهم سمات الهدوء والوداعة، وبعضهم

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم حديث رقم: ٣٣٦٦، ج٣، ص١٣٠٥.

(٢) رواه **الترمذي**، كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حسن الخلق، حديث رقم: ٢٠٠٢، ج٤، ص٣٦٢، وقال الترمذي: هذا **حديث حسن صحيح**، ورواه **أحمد**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهما، حديث رقم: ٦٥١٤. قال الألباني: **صحيح**.

(٣) رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨١، ج٤، ص١٩٩٧.

تبرز فيه الحدة وضيق المزاج وشدة الانفعال والصراخ، وبعض الأطفال يميلون أكثر إلى مساعدة الآخرين، بينما يميل آخرون أكثر إلى الاستئثار، وربما إلى شيء من العدوانية.

ولذلك وردت نصوص شرعية تفيد بأن الإنسان يُخلق مطبوعاً على أخلاق معينة، ومن ذلك: قوله ﷺ لأشج عبد القيس: **(إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ، الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ)**[1]، وفي رواية: **(قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشَيْءٌ جُبِلْتُ عَلَيْهِ أَمْ شَيْءٌ حَدَثَ لِي؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : بَلْ شَيْءٌ جُبِلْتَ عَلَيْهِ)**[2].

لكن هذه الميول والاستعدادات، إنما هي بمثابة البذرة، تبقى مستكنة إذا لم تُتَعَهَّد بالعناية ولم تتوافر لها الظروف الملائمة، وتظهر وتنمو إذا وجدت إرادةٌ وظروفٌ لتنميتها، سواء أكانت في اتجاه الخير أم في اتجاه الشر.

ولذلك وردت نصوص شرعية تفيد بأن الأخلاق تُكتسبُ، وأن الإنسان هو من يزكي نفسه ويربيها على الأخلاق الفاضلة، أو يهوي بها إلى حضيض الأخلاق السيئة. ومن هنا أيضاً كانت الأخلاق الحسنة سبباً للمدح وعلو الدرجات، بينما كانت الأخلاق السيئة سبباً للذم ونزول الدركات[3].

ولكن لو فرضنا شخصين، أحدهما يميل إلى الهدوء، بينما يتصفُ الآخر بالحدة وسرعة الانفعال، وأنهما خضعا لظروف متشابهة تنمي الميل إلى الحلم، فإن الثاني ستخف حدته، دون أن يصل إلى درجة الحلم التي وصل إليها الأول، وهذا معنى قول النبي ﷺ: **(النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا)**[4].

---

(١) رواه **مسلم**، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه، حديث رقم: ١٧، ج١، ص٤٨.

(٢) رواه **ابن ماجه**، كتاب الزهد، باب الحلم، حديث رقم: ٤١٨٧، ج٢، ص١٤٠١، ورواه بقريب من هذا اللفظ: **النسائي**، أحمد بن شعيب، **المجتبى من السنن (سنن النسائي)**، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦م، باب قول الله: ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، ذكر أسماء الله تعالى وتبارك، حديث رقم: ٧٧٤٦، ج٤، ٤١٦، قال الألباني: **إسناده صحيح على شرط الشيخين**، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد اختصاراً هكذا: رواه النسائي.

(٣) أنظر قريباً من طريقة جمعنا بين هاتين الطائفتين من النصوص، في: **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ١٧٩ - ١٩٤.

(٤) جزء من حديث تتمته: **(وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ)**، رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم: ٢٦٣٨، ج٤، ص٢٠٣١، وفي **البخاري** جزء من حديث آخره: (...**قَالَ فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا)**، كتاب

أناقش: قد يسوّغُ بعض المجرمين جرائمهم، بأنهم مجبولون على الشر، ما رأيك في ذلك؟!

قواعد الأخلاق

ما معايير التمييز بين حسَن الأخلاق وقبيحها؟ وكيف يمكن التزام الأخلاق الحسنة؟ يمكن استخلاص قواعد شرعية لذلك، من أهمها:

١) التزام الشرع

إن خير ميزان لتمييز الأخلاق الحسنة، وأفضل ما يساعد على التخلق بها، التزامُ الإسلام وأحكامه، فإن الإسلام لم يأمر إلا بكل حسن، ولم ينه إلا عن كل قبيح، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ (النحل: ٩٠).

٢) تزكية النفس عن الهوى

قد تُزيّن نفس المرء له قبائح الأعمال فيراها حسنة، وتأمره بالسوء، وتسوّلُ له الظلم والعدوان، ومن نظر في كثير من الرذائل والأخلاق الذميمة، لوجد أن سببها الرئيس هوى في النفس ومبالغة في حب الذات والشهوات.

أتأمل: قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩)، يوضح أثر النفس وسلطانها، حيث يصور شح النفس رجلاً مقاتلاً شديد المراس، يهجم على صاحبه، وليس أمامه إلا أن يصده بقوة وبواق شديد يرده، وليس ذلك الواقي إلا تزكية النفس.

ومن هنا اهتم الإسلام بتزكية النفوس وتأديبها وتهذيبها[1]، حتى تحتكم للحق وللخير ولا تنساق وراء هواها ووساوسها الأمارة بالسوء.

أتأمل: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾ (المعارج: ١٩-٢٢)، فهذه الآيات الكريمة تبين أن للعبادة أثراً كبيراً في تخليص الإنسان من الأخلاق الذميمة، حتى تلك التي طُبع عليها.

أحاديث الأنبياء، باب واتخذ الله إبراهيم خليلاً، حديث رقم: ٣١٧١، ج٣، ص ١٢٢٢، وباب أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، حديث رقم: ٣١٩٤، ج٣، ص١٢٣٥.

(١) أنظر: **الغزالي:** محمد، **خلق المسلم**، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩م، ص ٧ - ٩.

٣) تَكَلُّفُ الأخلاق الحسنة

نعني بتَكَلُّفِ الأخلاقِ الحسنة: أن يحمل المرء نفسه على التخلق بالأخلاق الفاضلة والتخلص من الرذائل، وذلك يكون بالتدرب على السلوك القويم، وهجر كل ما يشين، حتى يصبح الخلق الجديد عادة وسجية مستقرة في النفس، وذلك يشبه تنمية الجسد وتقويته بالرياضات البدنية.

فمن يكذب، يتحَرَّى الصدقَ، حتى يصبح الصدق سجية فيه، ومن يسرع إليه الغضب لأتفه الأسباب، ليتصنَّع مظاهر الهدوء والحِلم عند كل موجة غضب، ومن يعاني من البخل، ليتكلّف الإنفاق في مواطنه، وهكذا..، في جهاد يتدرج فيه المرء في مراتب الكمال، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(العنكبوت: ٦٩)، ويقول النبيﷺ: **(وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ)**[١].

يقول الميداني: (إن التدريب العملي والممارسة التطبيقية، ولو مع التكلف في أول الأمر، وقسر النفس على غير ما تهوى، من الأمور التي تكسب النفس الإنسانية العادة السلوكية، طال الزمن أو قصر، والعادة لها تغلغل في النفس يجعلها أمراً محبباً، وحين تتمكن في النفس تكون بمثابة الخلق الفطري، وحين تصل العادة إلى هذه المرحلة تكون خلقاً مكتسباً، ولو لم تكن في الأصل الفطري أمراً موجوداً)[٢].

أناقش: من الأمثال الشائعة: (الطَّبعُ غلب التَطَبُّعَ)، ما رأيك في ذلك؟

٤) معاملة الناس بمثل ما تحبُّ أن يعاملوك به:

هذه قاعدة تشتمل على ميزان دقيق يحدد السلوك الحسن، فعند كل سلوك للإنسان مع الآخرين، ليتخيل نفسه مكانهم وهم مكانه، ولينظر هل يرتضي ذلك النوع من السلوك منهم في حقه أم لا، وعلى ضوء ذلك ليقرر كيف يعاملهم، يقول النبيﷺ: **(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)**[٣].

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، حديث رقم: ١٤٠٠، ج٢، ص٥٣٤، ورواه **مسلم**، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، حديث رقم: ١٠٥٣، ج٢، ص ٧٢٩

(٢) **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

(٣) رواه **البخاري**، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم: ١٣، ج١، ص١٤، ورواه **مسلم**، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم:٤٥،ج١، ص٦٨.

وهكذا يستقيم سلوك الإنسان، ويلتزم الصدق مع الآخرين، لأنه يحب من الآخرين أن يكونوا صادقين معه، وسيكون أميناً معهم، لأنه هكذا يحب أن يكونوا معه، ولن يحقد أو يحسد أو يغتاب، لأنه لا يحب ذلك من الآخرين تجاهه[1].

٥) الابتعاد عن كل ما يجد الإنسان في نفسه منه شيئاً

من فضل الله تعالى على الناس أنه فطرهم على الخير، وكل من يُقدم على شر أو عمل قبيح، فإنه يحسُّ بتلك الفطرة تنازعه وتمانعه، وحتى عندما تلتبس عليه الأمور، فإنه يجد نوعاً من الصراع الداخلي والتردد. يقول النبي ﷺ: **(الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)**[2].

فالحديث الشريف يضع معياراً نفسياً دقيقاً للتمييز بين الصواب والخطأ، والحسن والقبيح، خاصة في الأمور المشتبهة، ومن يتأمل في كثير من الأفعال المستقبحة التي يرتكبها الإنسان، يجد أنه قارنها أو سبقها ذلك الشعور النفسي الخفي، الذي يقوم على التردد والتشكك، مع الحرص على إخفاء الأمر عن الآخرين.

٦) اختيار الرفيق الصالح

للرفيق أثر كبير في سلوك رفيقه وأخلاقه، وهذا أمر ملحوظ، ولذلك قيل في المثل الدارج: (الصاحب ساحب)، ومن هنا ركز الإسلام على أهمية اختيار الرفيق الصالح وحذّرَ من رفقة السوء، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾(الزخرف: ٦٧).

٧) الاقتداء بالصالحين

إنَّ للنموذج الحي والقدوة العملية أثراً كبيراً في النفس، وقد كان من فضل الله تعالى على الناس، أنه لم يكتف بأن أمرهم بالتزام الأخلاق الفاضلة والتخلق بها، بل ضم إلى ذلك إيجاد نماذج حية، ضرب المثل بهم وأمر بالاقتداء بأخلاقهم، وعلى رأس هذه النماذج نبينا ﷺ، الذي كانت أخلاقه تطبيقاً عملياً لكل ما دعا إليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١).

وكل من سار على هدي الله تعالى ورسوله ﷺ فهو قدوة ينبغي احتذاؤها، وعلى المسلم أن يحذر من الإعجاب بغير الصالحين والمهتدين أو التعلق بهم والميل إليهم، لأن ذلك من أكبر أسباب انحدار الأخلاق وسوء السلوك.

---

(١) أنظر: **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٨١ - ٨٢.

(٢) رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم: ٢٥٥٣، ج٤، ص١٩٨٠.

خصائص النظام الأخلاقي في الإسلام

يتميز النظام الأخلاقي في الإسلام، بخصائص، من أهمها:

١) الثبات

يقيم الإسلام الأخلاق على أساس ثابت متين لا يتغير ولا يتزعزع هو أساس الدين والعقيدة، وهو ما يَسِمُهَا بالثبات، فالالتزام بالأخلاق في الإسلام مسألة مبدأ، وليس التزاماً مرتبطاً بالمصلحة يتبدل بتبدلها، ولا بالظروف يتغير بتغيرها، ولا يمكن أن يفرط المسلم بها بحال، فالمسلم يلتزم الصدق مثلاً، ولو لم يوافق مصلحته الخاصة في بعض الأحيان، ودافعه في ذلك نيل رضوان الله تعالى.

وبقدر ما يكون المسلم متمسكاً بعقيدته يرتقي في أخلاقه، بينما يدل سوء الأخلاق على ضعف العقيدة ووهنها في النفس، يقول النبي ﷺ: **(وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ)**[١]، ومن هنا كانت علامات النفاق مساوئ الأخلاق: الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، والغدر عند العهد، والفجور عند المخاصمة.

٢) الدافع الذاتي

ركز الإسلام على إيجاد دوافع ذاتية قوية في نفس المسلم تفوق قوة الدوافع المادية الآنية، وتحمله على الالتزام بالأخلاق في كل حالاته، ولو لحقه من ذلك ضرر دنيوي أو فاته نفع مادي، لأنه يرجو في الآخرة نفعاً أعظم ويخاف عقاباً أعم.

وذلك يضمن التزام أفراد المجتمع بها في السر والعلن وفي كل حال، ويحقق النفع العام الذي يعود على كل أفراد المجتمع[٢]، سواء أعادت على الملتزم بها بنفع مادي أم لم تعد، وسواء وجدت رقابة الدولة والمجتمع أم لا.

٣) الشمول

أوجب الإسلام التزام الأخلاق في كل ميادين الحياة[٣]:

فهي أخلاق تحكم العلاقة الزوجية على أساس من العشرة بالمعروف والتواد والتراحم، وعلاقة الإبن بوالديه بالبر والطاعة، وعلاقة الوالدين بأولادهما بالرفق والرحمة.

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم: ٥٦٧٠، ج٥، ص٢٢٤٠.

(٢) **البغا**: د. مصطفى ديب، **نظام الإسلام في العقيدة والأخلاق والتشريع**، مرجع سابق، ص ١٥٥ - ١٥٩.

(٣) أنظر: **الميداني**: عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٥٥ - ٥٦.

وهي أخلاق تحكم علاقة الفرد بمجتمعه على أساس الصدق والكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، كما تحكم عالم المال بالكرم والبذل والبعد عن البخل والإسراف وعن التفاخر بالأموال.

وهي أخلاق تحكم علاقة الحاكم بالمحكومين على أساس العدل والشورى والطاعة بالمعروف، وتحكم علاقة المسلم بغير المسلم من إحسان وبر وقسط.

وهي أخلاق تحكم المسلم حتى في تعامله مع أعدائه حالة الحرب، من وجوب الوفاء بالمعاهدات والابتعاد عن الغدر وعن قتل المدنيين المسالمين.

وهي أخلاق تحكم المسلم في تعامله مع البيئة، فتوجب عليه الابتعاد عن التخريب والإفساد في الأرض.

الفلسفة المادية للأخلاق

تقوم الفلسفة المادية للأخلاق على أساس مادي نفعي، وهو:

أن أي عمل أو خُلُق يُحكم عليه بأنه صواب أو خطأ، خيرٌ أو شرٌ، بقدر ما يعود على صاحبه من نفع ولذة. فالخير هو ما يعود على الإنسان بنفع مادي، والشر هو ما يعود على الإنسان بألم مادي وخسارة مادية[1].

وهذه الفلسفة يتوجه عليها انتقادان جوهريان:

الأول: أنها فلسفة تهدم الأخلاق الإنسانية من أساسها، حيث تقرر (نسبية الأخلاق)، وعدم وجود مقياس إنساني عام لها، من دين أو ضمير أو حس إنساني مشترك، وإنما يغدو مقياسها مقياساً مادياً نفعياً محضاً، يختلف باختلاف العادات والتقاليد والزمان والبيئة والظروف والأشخاص، فليس هناك فضيلة مطلقة ولا رذيلة مطلقة[2].

وعلى سبيل المثال: لا يعود هناك معنى لفضيلة العفة، إذا دُفِعَ مبلغٌ كبيرٌ للتحلل منها، ويغدو نهب ثروات الآخرين وظلمهم واحتلال بلادهم، فضائل أخلاقية بالنسبة إلى من يقوم بها، لأنها تعود بالنفع عليه[3].

---

(١) وقد صاغ هذه الفلسفة الفيلسوف (بنتام) (١٧٤٨ – ١٨٣٢م)، بما عرف بـ (مذهب المنفعة)، أنظر: **بدوي:** د. عبد الرحمن، **الأخلاق النظرية**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٥م، ص ٢٤٧ وما بعدها.

(٢) أنظر: **بدوي:** د. عبد الرحمن، **الأخلاق النظرية**، مرجع سابق، ص ٢٥٢ - ٢٥٣، **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٩٧ - ١٠٤.

(٣) أنظر تحليلاً ونقداً عميقين للفلسفة المادية في الأخلاق وآثارها المدمرة، في: **بيجوفتش:** علي عزت، **الإسلام بين الشرق والغرب**، الناشر: مجلة النور الكويتية، الكويت، ط١، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م، ص ١٧٧ - ٢١٥.

الثاني: أنها فلسفة تجرد الإنسان من إنسانيته، والواقع يثبت أن الإنسان ليس حيواناً بيولوجياً محكوماً بشكل آلي لحسابات اللذة والألم، وإنما هو مخلوق متميز متجاوز للمرجعية المادية المحضة، ولذلك يصعب على الفلسفة النفعية تفسير قيام الناس بأعمال أخلاقية عظيمة تخلو من المنافع المادية، مثل: أداء الواجبات الاجتماعية التي تتضمن تضحية من أجل الآخرين، كالعناية بذوي الاحتياجات الخاصة والمرضى الذين لا أمل في شفائهم، ومثل المخاطرة في سبيل إنقاذ إنسان مشرف على الهلاك، ومثل التضحية في سبيل قيم معنوية، كالتضحية بالنفس من أجل الوطن أو القيم الإنسانية أو من أجل الشرف[١].

أقرأ وأستمتع
من أخلاق السلف الصالح

- رُويَ أن عمرَ بنَ عبد العزيز أتاه ليلة ضيفٌ وكان يكتب، فكاد السراج يُطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه، فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبِّهُ الغلامَ؟ فقال: هي أول نومة ينامها، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتاً، فقال الضيف: قمت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعاً[٢].

- قال ابن سيرين: (ما حسدتُ أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة! وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار!)[٣].

---

(١) **بيجوفتش:** علي عزت، **الإسلام بين الشرق والغرب**، مرجع سابق، ص ١٧٧-٢١٥.

(٢) **حوى:** سعيد، **المستخلص في تزكية الأنفس**، دار عمار، عمان، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٢٤١.

(٣) **المقدسي:** أحمد بن عبد الرحمن، **مختصر منهاج القاصدين**، خرج أحاديثه وعلق عليه: عصام عبد الرحيم، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م، ص ٢٠٢.